الفصل الرابع

بيان تشييد يوسف الصديق لمدينة الفيوم وحفره لبحيرة يوسف بإذن الله . تعالى .

جاء فى تاريخ الشيخ السيوطى ـ رحمه الله ـ: أن يوسف كان عبدًا مملوكًا لعزيز مصر قبل أن يشب فتًى يافعًا، وقيل افتراءً على يوسف أنه يعشق زليخة (امرأة العزيز) وتعشقه، فألقى الملك ريان يوسف فى السجن بمدينة الجيزة، وقد نزلت هذه الآية الشريفة على الرسول الكريم ﷺ على سبيل القصص: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ [يوسف: ٣٦]، وهذا السجن يقع الآن فى منطقة الجيزة فى مواجهة مصر القديمة وبالقرب من جامع بوصير، وفى هذا الجامع يوجد كذلك الصندوق الذى وضعت فيه أم موسى ولدها من خشية فرعون وألقته فى النيل، وتخلص يوسف من هذا السجن ببركة صدقه، وآل إليه حُكم مصر. وحكَم يوسف مصر على سُنّة إدريس ودعا الله قائلاً: «اللهم إنى غريب فحببها إلى وإلى كل غريب»، ولأجل دعاء يوسف هذا نعمت طائفة العبيد، وغريبو الديار، بالعزة والسعادة.

ولقد أصبحت أنا الفقير الذليل الحقير قرير العين فى مصر وببركة دعاء يوسف ـ عليه السلام ـ حبا الله الأرض عَشْر نِعَم اختص مصر بتسع منها، والعاشرة هى كل الدنيا، لأنها الإقليم الآخر وفيها كثير من المطلسمات والعجائب والمعادن الغريبة، ولقد جاءت النبوة إلى يوسف من قِبَل المولى جل وعلا وهو فى الأربعين من عمره، إلا أنه كان خليفة فى الأرض وله من العمر ثلاثون عامًا، ولما كانت مصر أرض الجبارين زايلها ومضى إلى وادى الفيوم، وطاب له جوها السَجْسَج وشيد مدينة الفيوم فى ألف يوم، ومن الخطأ قولهم إن الفيوم من ألف يوم وإن كان التحقيق فى لسان العرب مقبول، وقد رفعت بالمعرّفة باللام، ولذلك يقولون فيوم بمعنى المدينة التى بُنيت فى ألف يوم، ولقد حمل يوسف الصديق بنفسه تراب الخليج فى ذيله مؤتمرًا بأمر جبريل الأمين؛ فقد قال الله ـ تعالى ـ لجبريل: «ألحق يا جبريل بيوسف وأعنه»؛ فهبط جبريل من السماء إلى الأرض وكأنه برق خاطف؛ فضرب البحيرة بجناحه فتطاير التراب إلى السماء ونزل إلى القعر فى الثريا، وضرب الصعيد العالى بجناح فانشقت ترعة فجرى فيها ماء النيل إلى

بحيرة الفيوم، إنها فج عميق كم فيها من مخلوقات وحشرات البحر، وفى كل عام يطهرون الترع بالثيران، ولكن بما أن هذه الترعة شقها جبريل فلن تجرف إلى انقضاء الزمن.

إن النيل يجرى ولكن إذا دخل ماؤه البحيرة أصبح ملحًا أُجاجًا، وعلى جوانب هذه البحيرة الأربعة ثلاثمائة وست وستون قرية كل واحدة منها تشبه «إرم ذات العماد»، وسوف نذكر أوصاف الفيوم فى موضعها بمشيئة الله.

وحينما كان يوسف الصديق يسكن الفيوم لم يطق فراقه أبوه يعقوب، فقدم مصر من أرض كنعان مع أهله وعشيرته، وبينما كان الملك ريَّان فى عزلته منزويًا عن الدنيا مضى إلى يعقوب والتقى به ونال منه خير الدعاء له، وأكرمه كل الإكرام، وبعث به إلى الفيوم، كما خرج يوسف الصديق مسافة ميلين خارج الفيوم لإستقبال (أبيه) لذا يطلقون على هذين الميلين اللذين تحف بهما البساتين اسم ميلىّ يوسف، وهناك التقى الابن بأبيه، والتقيا تعانقًا، وتبادلا القُبل وقد غمرت البهجة نفس يعقوب بلقاء يوسف، ومع أن عينيه ابيضتا حزنًا على يوسف وذهب بصرهما فإنهما أنارتا كنرجستين، فأعْتق يوسف تسعين عبدًا له، فامتلأ قلب يعقوب سرورًا، ودعا الله ليوسف وسكن مصر ستة عشر عامًا. وكانت عيناه باصرتين إلى أن وافاه الأجل، وقبل أن يغمض يعقوب عينه عن الدنيا أوصى يوسف بأن يحمل نَعْشه إلى القدس ويدفن إلى جانب خليل الرحمن فى جبل جبرون.

ذكر وفاة يوسف. عليه السلام.

حين أدركت يوسف الوفاة كان ريَّان قد مات وملك بعده ابنه دارم فى مملكة أسوان فسمع بموت يوسف فاستقل بالمُلك، وبناء على وصية يوسف ألقوا يوسف فى صندوق من البرونز فى النيل، وبقى هذا الصندوق فى النيل إلى عهد سليمان عليه السلام -، وقدم سليمان مع الإنس والجن إلى شاطئ النيل، ومكثوا مدة، وأتت امرأة عجوز إلى سليمان فقالت: «يا سليمان فى هذا المكان ألقوا صندوقًا من البرونز فيه جثمان يوسف»، فتحين الفرصة لإخراجه، وفى التوّ أمر سليمان الجنَّ بحمل الصندوق وبه جثمان يوسف الصديق، فحملوه إلى القدس الشريف حيث دفنوه بجانب أبيه يعقوب فى جبل جبرون وهما الآن يرقدان فى قبر عظيم الأنوار يُزار.

* * *